أولئك الآلاف في مسيرة كبيرة طافت داخل الشوارع الضيقة في الدامور، وكان على رأس تلك المسيرة الحاشدة الأخ «أبو عمار» قائد الثورة: الشوارع ضيقة، والزحام كثيف وأسطح البيوت احتشد فوقها الآلاف أيضا ممن فاضت بهم الطرقات... والزغاريد الفلسطينية تختلط مع صوت الأناشيد ودوي الهتافات... ناصية فرعية، تتوقف المسيرة قليلا لينثر الناس كميات من الملح فوق الرؤوس منعا للحسد حسب التقليد الفلسطيني، أو ينثرون حبوب الأرز والورود رمزا للبركة والمحبة.

كان أهالي مخيم تل الزعتر الذين يسكنون في موقعهم الجديد في الدامور لا يزال جرحهم ينزف، ولا تزال ذكرياتهم عن مئات الضحايا من أبنائهم تثير في قلوبهم موجات من الحنين والنيران، ولم يكن في وسع أحد أن يتخيل أن هذا الجسم البشري المثخن بالجراح، يمكن أن ينهض بهذه السرعة القصوى.

واصلت المسيرة طريقها حتى وصلت إلى معسكر الأشبال، وما أن جلس الأخ «أبو عمار» وراء المنصة الرئيسية حتى بدأت تتشكل تلك اللوحة التي تشبه الطقوس المقدسة في الأزمنة الأسطورية، مئات من الرجال والنساء يحملون أطفالهم الصغار، يقتربون بهم من الأخ «أبو عمار»، يحملهم بين يديه، يحدق في عيونهم بحنان، يمسح على شعورهم، ثم يحضنهم ويقبّلهم...

وأذكر أنني سمعت في ذلك اليوم، مقاطع من حوار سريع بين واحد من الصحافيين الذين كانوا يغطّون أخبار الاحتفال وأحد المواطنين.

سأل الصحفي بدهشة: ماذا يفعل كل هذا الحشد من الأطفال؟

أجابه المواطن الفلسطيني: إنهم يهبون أنفسهم لفلسطين.

وعاد الصحفي يسأل: إنني أرى «أبو عمار» ينظر في عيونهم طويلا. هل هذه عادة فلسطينية؟

المواطن يجيب: نعم، إنه بهذه النظرة في العينين ينقل إليهم سر فلسطين، هذا السر الذي يقرأه الفلسطينيون في عيون بعضهم ويحملونه في قلوبهم ويزرعونه في كل المسافات.

إننا في الثورة نعمّد أطفالنا، ليس برشة من الماء، وليس بمسحة من الزيت، وليس بخرزة زرقاء أو حمراء.

إننا في الثورة نعمّد أطفالنا عن طريق حقن الذاكرة بالأسرار حتى لا تنسى، وعن طريق اشتعال الروح بالنيران حتى لا تنطفىء، وانطلاق هذه الثورة منذ خمسة عشر عاما هو في أحد صوره إعلان اليقظة الشاملة ضد النوم، وإعلان التوتر الشامل في وجه الخمول، وإعلان النار في وجه الصقيع..

والفلسطينيون منذ نكبتهم، منذ اقتلاعهم، منذ انتشارهم وراء حدود المسافات، أدركوا أن قضيتهم كبيرة ومتشابكة، ولقد سلكوا في الغابة الكثيفة طرقا شتى، كانوا هم وفود الأحزاب الكبيرة التي وصلت لكنها لم تستطع أن تحمل قضيتهم، وكانوا هم رواد